

إعادة بناء المدينة

بقلم محمد علي شمس الدين

مقدمة : الشعر : حركة عبور من الفخ الى الفضاء :

اذا كانت المسافة بين حركة الواقع ، ووعي هذه الحركة ، هي المبدأ الاساسي الدافع للتغيير ، على يد الفئات البشرية التي تكتشف ، في اضاءة وعيها المكون عبر التاريخ ، ان النقطة التي تقف فيها ، هي غير النقطة المبتغاة ، او هي النقطة التي ينبغي تفجيرها في اتجاه نقطة اكثر تقدما ـ اذا كانت هذه المسافة هي حقل التغيير البشري ،فان النار التي تنتج لهب الشاعر ،تنكون من اصطدام مخيلته بواقع الاشياء والاحداث والعوالم والكائنات . فالشاعر ، في تصوري ، دائما منتظر شيئا ولا يأتي تماما . فاذا جاء مطابقا الحلم . سقط في ركودية الراهن وبقي الحلم طائرا في الشاعر .

فالشاعر طفل عسير الرضى او مستحيل الرضى . ولعل هذا الاحساس الاصيل بالرفض . رفض الشرط البشري الراهن في اتجاه شرط اكثر تقدما ، هو النبع الاساسي لهذا السيل الجارف والمطهر من الكلمات. يقول الفيتوري : « .. وشر انواع السقوط مرض
هو السقوط في الرضى » .

من هنا يأخذ الشعر دوره الكاشف والتغيري : انه الفضيحة والنقاء . وهو يعمل على شبكة هندسية شبيهة جدا بالفضاء : هندسة الفضاء خطوط ودوائر واتجاهات : ولكنها صورة لحركة الاشياء الحقيقية . والشعر كذلك : شبكة بناء العالم بالكلمات . او شبكة اعادة بنائه ، او شبكة نقضه وهدمه لاعلائه ثانية .

وحين نفهم حركة الشعر بانها حركة عبور من الفخ الى الفضاء ، فاننا نسلك بذلك في اتجاه الحرية . فالمعرفة الحقيقية دائما تحرر . والمعرفة الشعرية واحدة من المعارف الحقيقية . بل لعلها الاشد سطوعا وحضورا في قلب العالم .

من هذا المدخل ، نتعامل مع المجموعة الشعرية التي نحن بصدد الكلام عليها . وكتابتنا عنها سوف تتحدد بالتالي :

نقطة (١) : المأزق .. ركام المدينة ـ الوطن ـ الانسان
نقطة (٢) : التصور ـ الحلم : اعادة بناء المدينة .

(١) المأزق : يظهر الشاعر في مجموعته واقعا في الحصار . يمنحه تارة اسم « السيل » :

« يزحف السيل .. حارقا كل نبض جميل » . او يمنحه اسم « الخراب » او يمنحه اسم « النار » :

« ألبس الابعاد تأسرني حدود النار » ، او « القتل » او « الدم » أو « الكفن » :

« قد تلبس الاشياء أكفانا وقد تتكشف الدكناء » .

حيث يصبح العالم انشوطه :

« .. العالم هذي الليلة حبل هموم يلتف على عنقي » .

في هذا الحصار ، يشتعل الخوف بقلب الشاعر . اذ « يهرب من كل الاجساد الانسان » فيغدو الفرح مفشوشا ، « وتموت الاشياء الطفلة » ، « ويغدو كل شيء بكاء » ...

ولعل اكثر الجمل الشعرية تعبيرا عن مجمل المناخ النفسي الشاعر ، هو هذه الجملة : « هنا حلم هاجمته القبائل » .

ما حدود هذا الحصار ؟

لا يبدو ان لدى الشاعر حصارا ذاتيا او هموما ذاتية . ليس لديه حس وجودي بمأزق الحياة والموت مثلا . بتعبير اكثر دقة : الشاعر مسكون بهم عام .. « هم وطني عام » . وهو يقدم لنا ذلك مباشرة ،مازجا بين حدود شخصيته وحدود وطنه ، ولا يترك لنا مجالا للشك او التأويل ، منذ العنوان الاول للمجموعة « اتولد بيروت وجها جميلا ؟ » حتى الكلمات الاخيرة فيها ، يطفى وجه الوطن عاريا ، دمويا ، مخربا ، مفتضحا ، ولا تسمى الاشياء الا باسمائها : فالجرح هو الجرح ، والموت

---

(١) قراءة شعرية في مجموعة « أتولد بيروت وجها جميلا ؟ » للشاعر فؤاد كحل . دار الآداب حزيران ١٩٧٧.

هو الموت ، والخراب هو الخراب ، والبكاء هـو البكاء ، والقبائل العربية هي القبائل العربية ، والدم والمخيـم والملاجىء والخنادق والبنادق .. لا تتعدى دلالاتها .

انها مشحونة بذاتها : تبدو وكأنهـا مكتفية بذاتها . او كان ليس لهـا طموح ان تقدم اكثر مما قدمت .

ما مدى شاعرية هذا النمط من الكتابة ؟.

قبل الاجابة عن هذا السؤال الاساسي ، لا بد مـن ايـراد استثناءيـن في المجموعة : الاستثناء الاول قصيده « يا سمك البحر أغثني » والثاني قصيدة : « الحلـم ـ النافذة » .

هكذا يبدأ ايقاع الشعر في « يـا سمك البحـــر أغثنـي » :

« يا سمك البحر أغثنـي
خذني عن هذا الميناء الصعب
أتيتك من رحمي مأسوراً وحزيناً . اركب لجة هذا البحر المملوء بأسرار الاشياء الطفلة .. »

وينتهي الايقاع في غياب الطفل في البحر :

« لم يلـوّح
ذهب الطفل على اجنحة الاسماك والشوق حزينا
لم يلوّح بيديـه
واختفى في لجّـة الماء وحيدا ..
ووحيدا في غد يصبح حلما وانتصار » .

واضح ان مـا يعكر الحلم الشعري في المقطـع الاخير ، هو تفسيريته : « ووحيدا في غد يصبح حلمـا وانتصار » . وكان بوسع الشاعـر ان يربح مدى واسعا لو انه اعدم هذه الجملة .

يبقى ان النموذج الشعري في « يا سمك البحـر أغثني » مبتكر وشفاف . لغته آسرة وغيـر مستنفدة ، وهو بعيد عن وضوح الاشياء السهلة ، يكاد يقدم الشاعر فيه نموذجـا متفرداً في المجموعة . متفردا في اسلوبيته، في طريقته . وهذا ما يشكل جوهر الشعر ، لانـه ، من غير الجدوى ، مثلا ، ان نقول : الشاعر هنا ايضا محاصر، وان حصاره ينبع من كوابح الوطن والعالم . الاكثر جدوى سؤالنـا : كيف اوصل لنـا الشاعر حالـــة حصاره وانفلاتـه ؟

ان امساك الشاعـر لمفتاح « الطفل ـ البحر » شكل الركيزة الحقيقية لبناء جمالي استطاع ان يتابعه ـ بمهارة وهدوء ، من غير ما ضوضاء ولا اعلان .

عودا على بدء سؤالنا ، بعد هذا الاستطرادالاساسي، نرى ان الاجابة تبدو اكثر يسرا ووضوحا . الا انها ليست مطلقـــة :

الواقع ان الاشياء لا تحمل حضورهـا الشعري الا في التركيب . وادوات التركيب الشعري ، واشكالـــه لا نهائية ، بمعنى انهـا غير محصورة الاشكال والصيـغ والتعابير والمعاني سلفا . لماذا ؟ لان الحياة في حركـــه دائمـة . وحالات الشعر فيهـا كذلك في حركة دائمة . في ابتكارات دائمة . لذلك لا يسعنا ان نقف . سلفـا ، مع الوضوح او ضده . مع الوزن او ضده ،مع القافيـــة او ضدها ، مع اللفظة ، مع الفراغ، مع الامتلاء،او ضدها : اننـا مـع التركيب الشعري في اية مركبة جاء .

لذلك : فـان الشاعر حين يقول (من قصيدة « مـا رونه الجثة في زمن القتل ») :

« سقط المخيم صار في الآفاق لحنا صرخة عـارا بوجه القادة الاشرار صار حكاية للغـدر والقتل الجماعـي المصدر من بلاد العرب .. » .

فانه يقدم حالة واقعية تسجيلية ، الا انها ضعيفـة روح الشعر . ولكنه حين يقول :

« وتفننت كل السلاسل في اقتحام صغيرة تبكي »

فانه يرتقي ويصبح اكثر تقدمـا وايحاء . كذلك حيـن يقول : « تلبس الازهار زرقتها والوان الدماء » .

فما الفرق ؟ وماذا يميز حضور الشعر عن غيابه في الحالات التي يصبو فيهـا الشاعر الى نقل الواقع ،تقريبا، كمـا هـو ؟ .

اعتقد ان ذلك عائد الى مقدرة الشاعر على التقاط شاعرية اللحظات ، او على شحنها بشحنة الشعر ، عبـر حساسية الشاعر المتكونة من مجمل عناصر يشتبك فيهـا الاجتماعيبالنفسي بالاقتصادي ، بعضها ظاهر في الوعي، واكثرهـا غائر في آبار اللاوعي العميقة الاغوار .

وهذه المقدرة على الفرز والتمييز هي عنصر اساسي في تكويـن شاعرية الشاعر .

ان الشاعر فؤاد كحل يمر في لحظات الشفافيـــة والارتقاء في مراقي الشعر الصافي :

« عارية شمسك يا « جارا » مثل دمـــوع الصيف وحـــزن الماء
عاريــة احلامك فوق شوارع هذا العالم
رؤيا غرق بيضاء
جارا .. طفت على الصحراء .. مياه
جـارا
جـارا ...
... آه » .

الا انه ، احيانا ، يحاول ان يسجّل صرخات شعرية، تحمل التحريض اكثر ممـا تحمل الايحاء :

« سقط المخيم هللوا لـي يا رفاق
من ها هنا ارتحلالمخيم ها هنا كان المخيم هللوا كانت ملاييـن الصواريـخ
السلاحالقاتل الوحشي تجثو ها هنا حول المخيم .. »

ولعل هاجس الشاعر في الوضوح السياسي هوالذي حرّك تعبيره . فالشاعر منحاز الـى الفقـراء والمخيم ،

والمظلومين والشهداء ، وهو ضد الطغاة والقتلة والسماسرة والتجار . انه مع (الوطن ــ الهيكل) ضد فريسيه وبائعي الحمائم والاطفال في ساحاته . ضد تجار الدم البشري الناصــع .

لا التباس في هذا الانحياز الوطني للشاعر ،مطلقا ، وان رغبته الصادقة فيهذا الموقع السلوكـــي الوطني ، صبغت تعبيــره وادواته الشعرية .

ليس من شك في ان الموقف الفكري والسياســـي للشاعر ، يشكل التغطية الذهبيـــة لشعره . ولكن الوقوف عند ذلــك معناه تحطيم الشعر او استبداله بسواه :
أعنــي الفـــاءه

تبقى كل العناصر في حضرة الشعر خادمة ومساعدة: الفكر ، الصوره ، الشكل ، الاستعارة :كل هذه الادوات وسواهــا تتناغم في البناء الكلي وتذوب في الحساسية الشعرية . تكمــن في الحساسية الشعرية . فاذا لـــم تستطع الذوبان في هذه الكهرباء ، سقط الشعر فـــي التحليلية او التبشيرية او الاعلان او الصراخ او الذهنية او اللغويـــة ..

(٢) التصور ــ الحلم : اعادة بناء المدينة

واضح ان فؤاد كحل حين يكتب مرثيـــة لبيروت ، فانمــا يرثي فيها الوطــن ــ الانسان . لكنه لا يقف عند حدود الرثاء . أن الشاعــر هنــا احيانا يسجل . ولكنــه احيانــا كثيرة ، يحاول ان يتنبأ . انــه لا يقف علـــى الاطلال ، ولكنه يحـاول ترميمها . يحاول ترميم الحلم المنهـــار .

: « حين تعمّ حدود النار . قال انا السحـــــاب فعانقــوا برقــي » .

ثم ها هوذا يبدأ صراخه الحزين :« في ذروة الانهيار

وثبت في اعراقي اغصان الدنيا
لاكــون صراخــا » .

ثمة يصبح الصراخ حريقا.ثم يصبح حضورا للاشياء ان الشاعر دائما يعيد السؤال :« من أين تشرق شمس البلاد الجديـدة ؟

من أيــن نفتح درب الفصــول ؟ »
كيف يجيء الصوت عظيما يبحث عن زمن الاشجار
فلعل دماء خضراء تعانق هذا الشريان اليابس
هذا الزمن القارس

أيتها العريانة كيف تعود الارض البكــر وكيف تضاء النافــذة الحبلى ؟ ».

لكنه يحذر دائما من فرحه . هل هو الفرح المغشوش؟

ان ثمــة شيئا مــا يضيء ولا يضيء .
« ما الذي لا يضيء ؟
انت أم رؤيتــي ؟ » .

ان يقين الشاعر بالوطن ــ الحلم ، هو يقين حقيقي. ولكنه ليس سهلا . يعرف ان الولادات الصعبة يسبقهــا دائمــا مخاض عسير . وفؤاد كحل واحد مــن الشعراء الذيــن سيعيدون بناء المدينة ، نامية وجميلة .

بيــروت — **محمد علي شمس الدين**